لحن الموت في شعر
((عزيز فهمي))

الدكتور محمد عبده المشد
الجامعة العربية المفتوحة - الكويت

مقدمة:

الموت... ذلك السر العجيب، لماذا ينفر كثير من الناس من الحديث عنه، مع أنه الحقيقة المؤكدة في هذا الوجود... "لا شك أن هناك بعض الجوانب الغامضة في الموت لدى بعض الناس، ومن ثم يعد الموت لديهم أمراً غامضاً، أو أعظم سر يواجههم، ولدى الإنسان ميل شديد إلى الخوف من المجهول والغريب غير المتوقع، كما أن هناك سبباً آخر للقلق من الموت، ومن ثم الضيق والضجر من الحديث عنه لدى الآخرين، وهو أن الموت ينهي فرصة الإنسان الذي يركز على هذه الحياة الدنيا في السعي نحو تحقيق أهدافه فيها على الرغم من زوالها وفنائها "[1].

إن مشكل الموت قديم قدم الحضارات والديانات والشعوب، والصراع ضد الموت كان الموضوع الجوهري الذي حقق فيه الموت الانتصار على قوى الحياة أولاً، لكن هذا الانتصار ينقلب ليصبح انتصاراً على الموت.

وقد كان للشعراء مواقف خاصة من الموت عبر العصور الأدبية المختلفة، فالشاعر الجاهلي مثلاً، كان يمتلك حساً تراجيدياً بالموت كنهاية للحياة وهو إحساس حاد لا يجد له عزاء في حياة ثانية بعد الموت، أو الاحتماء بفكرة الخلود، فهو بتحققه من أن الموت فناء شامل أكمل اكتشافه للموت، ومعه ترسخ في روحه هذا الإحساس الفجائي بهشاشة الحياة التي مصيرها الزوال والفناء، وليس أدلّ على ذلك من فكرة الأطلال عندهم، حيث تكون رمزاً للزمن المنصرم، فكأنهم كانوا يبكون على حياة مرت وانقضت، لذلك جاء شعرهم في هذا الباب ليدل على الفجيعة والإحساس بالغيب والموت الصارخ.

أما الشعراء العذريون فقد ربطوا بين الحب والموت، فالعذاب والألم الذي يلاقيه المحبوب نوع من الموت، والانتهاء، فالعاشق يعيش حالة غياب وموت حيث لا يشارك في حياة الناس.. بل يغيب عن نفسه ليحيا بمحبوبه، ويوصل بعضهم للجنون الذي يذهب العقل أحياناً.

أما أبو العلاء المعري فقد عشق الموت، وذم الحياة، والدليل على ذلك لزومياته، حيث لا تكاد تخلو قصيدة من ذكر الموت وذم الحياة، والحياة في نظره شقاء دائم للإنسان لا راحة منها إلا بالموت ولذلك فقد عزف عن الحياة، وتشوق للموت الذي كان بغيته.

وإذا وصلنا إلى الرومانسيين في العصر الحديث نجدهم يقتربون جداً من فكرة الموت عند المعري مع اختلاف يسير، حيث نفروا من مجتمع زمانهم- مجتمع المجاملات، والنفاق، والكذب- فاحتموا بالعزلة والبعد عن هذا المجتمع، ولجأوا إلى الطبيعة علّها تخفف عنهم بعض العناء الذي أصابهم، ويتضح ذلك مثلاً في شعر "جبران" حيث يتجرد الموت عنده من تلك الهالة السوداء التي أحاطه الناس بها، فيضحي احتفاء بحياة ثانية يتحقق فيها للإنسان حلمه بحياة تتعالى عن كل ما يشوهها ويعوقها... ففي الموت تنعدم القيود، ويحظى الإنسان بتلك الحرية التي ظل ينشدها بين ظهراني الحياة.

بل وصل جبران إلى أبعد من ذلك حينما احتفى بالموت وفرح به، لدرجة أنه خصّه بقصيدة عنوانها: "جمال الموت"!!، فلا فجيعة ولا مأساة.. وإنما فرح واحتفاء كبير كما يقول:

دعوني أنم فقد سكرت روحي بالمحبة

دعوني أرقد فقد شبعت روحي من الأيام

أشعلوا الشموع وأوقدوا المباخر حول مضجعي

وانثروا أوراق الورد والنرجس ثم انظروا ما تخطه

يد الموت على جبهتي...

وعلى هذا تسير القصيدة، وكأنها أنشودة حب واشتياق لملاقاة الحبيب "الموت".

وشاعرنا- عزيز فهمي- من هذا الصنف من الشعراء الذين عشقوا الموت ووجدوا فيه الخلاص من هموم الدنيا وآلامها، فقرر العزلة عن الحياة إلى الحب والموت، وهذه التجربة استأثرت باهتمامه فجعلته ساخطاً على الحياة مقبلاً على الموت، مما جعل الدكتور "طه حسين" يلمح لذلك في مقدمة الديوان حيث يقول: "وقد رأينا أن ننشر ما حفظنا من شعرك، فلم نكتف بشعرك في السياسة، وما ألم بالوطن والإنسانية من خطب، وإنما نشرنا معه

شعرك في الحب والموت، فكم كنت تجيد الشعر في الحب والموت... صاحبت الموت منذ أول الشباب، صاحبته دون أن ترى شخصه، فكنت تذكره دائماً، تذكره في حديثك، وتذكره في شعرك، وتذكره حين تناجي نفسك في غير كلام، تحس محضره إلى جانبك، وتريد أن ترى شخصه فيمتنع عليك فتسأل عنه...[2].

وهذا ما لفت انتباهي لعزيز فهمي... فقد توزع ديوانه بين قصائد الحب والحديث عن الموت والرثاء، ووجدت في هذا الديوان رغبة مني في دراسة الرثاء عند عزيز فهمي... ولكني وقعت في حيرة... هل أعطي البحث عنوان "الرثاء في شعر عزيز فهمي"؟ أم "لحن الموت في شعر عزيز فهمي"؟

واهتديت إلى العنوان الثاني، حيث فكرة الموت عنده مختلفة غير تقليدية، خاصة عندما يتناول الموت بإحساسه هو، ويظهر كيف انعكس هذا الإحساس على نفسه.

وقد اشتمل هذا البحث على عدة محاور:

- حياة الشاعر.. واتجاهه الأدبي.
- صورة الموت في شعر عزيز فهمي.
- الرثاء في شعر عزيز فهمي.

وهذه المحاور الثلاثة لعلها تقدم رؤية الشاعر عن الموت، وصورته وتظهر لنا مدى علاقته بمن حوله وخاصة من الشعراء الذين قدم لهم الرثاء والعزاء بعد وفاتهم، وعلى رأسهم حافظ إبراهيم، وأحمد شوقي، وعلي محمود طه... بقصائد حملت وفاءه لهم، وبثها بعضاً من رؤيته الخاصة لطبيعة الموت.

وبعد.. فهذا جهد الباحث، حاول فيه أن يظهر وجهة نظر الشاعر عن الموت، من خلال عرض وتحليل لنماذج قصائده في هذا الموضوع، ولا يدعي الباحث الكمال، وحسبه أن حاول الاجتهاد، وأخلص النية، والله تعالى من وراء القصد.

- عزيز فهمي –(1327هـ/ 1909م- 1373 هـ / 1952 م)[3].

حيـاته.. واتجاهه الأدبي...

عزيز عبد السلام فهمي جمعه.

- ولد في طنطا- مصر- وتوفى في العياط جنوبي القاهرة غرقاً، بعد انقلاب سيارته في النيل

– عاش في مصر وفرنسا حيث الدراسة الجامعية.

– تلقى تعليمه الأولي في طنطا حتى المرحلة الثانوية، ثم انتقل إلى القاهرة فأكمل دراسته بمدرسة الجيزة الثانوية، وحصل على شهادة البكالوريا سنة 1927، التحق بعدها بكلية الحقوق "جامعة القاهرة"، وفي الوقت نفسه انتسب إلى كلية الآداب بنفس الجامعة، ثم سافر إلى فرنسا لدراسة القانون، وحصل على الدكتوراه في القانون من جامعة السوربون سنة 1938م.

– بعد عودته من فرنسا عمل بسلك النيابة، غير أنه فصل بعد إقالة الحكومة الوفدية "1944" فاشتغل بالمحاماة، وانتخب عضواً للبرلمان المصري، كما اشترك في تحرير الصحف والمجلات التي كان يصدرها حزب الوفد.

– كان عضو مجلس النواب، وعضو حزب الوفد، كما كان عضواً في كتائب الفدائيين، واشترك في عمليات فدائية على معسكرات قوات الاحتلال الإنجليزي، كما اشترك في الدفاع عن الأحرار في مراكش والسودان 1951م.

– كانت له صولات في البرلمان المصري، أشهرها دفاعه عن حرية الصحافة، مما أوغر صدر الملك عليه، وكان يمثل الطليعة الوفدية مع الناقد "محمد مندور".

الإنتاج الشعري:

– له "ديوان عزيز" وهو ديوان من القطع المتوسط الحجم، يقع في مئة وست وثلاثين صفحة، ويحوي عدد اثنتين وخمسين قصيدة شعرية ومقطعة، تدور معظمها حول الشعر الوجداني، والوطني، وبعض القصائد عن الحب والصبابة، وذكريات الشباب، كما أنها تحوي عدد (9) قصائد على الأقل في الرثاء والحديث عن الموت بشكل عام.

وشاعرنا ينتمي إلى الشعراء المتأثرين بمدرسة "أبولو" حيث "إن هناك مفهوماً جديداً للشعر قد بدأ يظهر بقوة، في آفاق الشعر المصري، منذ أن بدأت عواصف التمزق الحزبي بعد توقف المد الثوري لثورة 1919 م، ومعها عوامل ثقافية وأخرى تلوي شراع الشعر الوطني المصري، وتسري به في متاهة اليأس والتشاؤم وأمواج الشك الذهني، والتساؤل الفلسفي، وأخذ الشعراء المتأثرين بـ "أبولو" ينسحبون من صخب المجتمع، وعالم السياسة والسياسيين، هاربين إلى بكائيات الحب الشاردة، لائذين بمظاهر الطبيعة الشاحبة الحزينة، أو بأكفان الموت، وأشباحه، أو بالنفي الأبدي في الوجود، والتشرد الدائم في الكون"[4].

ثم يتعجب د/ دعيبس من هذا الصنف من الشعراء، وما يدفعهم إلى ما يقومون به من هروب... حيث يقول: "تُرى.. ماذا يفعل الشاعر الهروبي... حين يضيق به وطن الحب المائل في قلب حبيبته، ويضيق به وطن الطبيعة الوحشية أو الحالمة... ويضيق به وطن التجوال والتشرد... ترى أين المفر؟ حين تتحطم المرافئ كلها أمام شراع الملاح الحائر في لياليه التائهة وراء الغمام... حين تنهار أمامه الأوطان الهروبية كلها: لا يجد ملاذاً له إلا الوطن الأخير: "الموت" إنه مهربه الأخير الذي لا يضيق بالغرباء المعذبين...!!"[5].

أما الدكتور غنيمي هلال فيؤكد ذلك ولكن بعشق هؤلاء الشعراء للموت، وكأنهم يرون فيه صورة حالمة حيث يقول: "إن الشاعر الهروبي المغترب، وتحت تأثير الصورة الجميلة الحالمة للموت في الشعر الرومانتيكي يلوذ بوطن الموت حين تستبد به الغربة الروحية، حيث إن الموت عند الرومانتيكيين حلم جميل، إنه تطلع إلى الخلود في خواطر المجاهدين من الرومانتيكيين، فهو يختلف عن موت العاجزين القاعدين".[6] وظاهرة عشق الموت والغرام به عند "عزيز فهمي" جعلت مُقدِّم الديوان الدكتور طه حسين يلمحها ويتوقف عندها في المقدمة حيث يقول[7]: "معذرة يا بني!، إن الشعراء حين يستأثر الموت بأجسامهم معرضون لكثير من المحن، شأنهم في ذلك شأن الكتاب والفلاسفة، حياتهم ليست ملكاً لهم، وإنما هي ملك للناس جميعاً، فشعرهم مهما يكن موضوعه خليق أن ينشر ويذاع لأن للناس جميعاً حقاً فيه".

"وقد رأينا أن ننشر ما حفظنا من شعرك، فلم نكتف بشعرك في السياسة، وما ألم بالوطن وبالإنسانية من خطب، وإنما نشرنا معه شعرك في الحب والموت، فكم كنت تجيد الشعر في الحب والموت، كنت مرهف الحس صافي الذوق، مترف النفس، فكنت محباً دائماً، وكنت سباقاً إلى الشعور بما أضمرت لك الأيام، شأنك في ذلك شأن الشعراء الملهمين".

صاحبت الموت منذ أول الشباب، صاحبته دون أن ترى شخصه، فكنت تذكره دائماً في حديثك، وتذكره في شعرك وتذكره في مثل خطف البرق، فرأيته غير مستوثق، وتساءلت عن الموت أتراه ينتظرك بين الموج، وقد كان ينتظرك بين الموج الهادئ، كان الموج هادئاً جداً، وكان الموت بينه هادئاً جداً كذلك.

وكانت السيادة عنيفة، حتى إذا بلغت المكان الذي قُسم لها أن تبلغه أسلمته إلى الموت الهادئ، والموج الهادئ جميعاً، وأثارت في قلوب أبيك وأهلك وصديقك حزناً صاخباً وجزعاً عنيفاً.[8]

وكـأن الـدكتور طـه حسـين يشـير هنـا إلى نهايـة الشـاعر حيـث لقـي حتفـه جـراء حـادث سيارة، بعـد أن قفـز سـائقه وتـرك السـيارة، ممـا جعـل أصـابع الاتهـام تشـير إلى الملـك في ذلـك الوقت".[9]

ولعل شاعرنا في ذلك يلتقي مع شاعرين عشقا الموت، على الرغم من شبابهما وإقبالهما على الحياة، وهما: أبو القاسم الشابي، ومحمد عبد المعطي الهمشري، فالأول كان لديه غرام بفكرة الموت، حيث يقول:

جف سحر الحياة يا قلبي الباكي

فهيا نجرب الموت هيا.[10]

وهذا المعنى تعلق عليه نازك الملائكة قائلة:

"فهـذا بيـت يلفـت النظـر بمـا يتخـذه الشـاعر مـن موقـف تجـاه المـوت يخـالف الموقـف المعتـاد للمحتضـرين، فهـو بـدلاً مـن أن يعـرض استسـلام الشـاعر لهـذا الفنـاء الـذي لا بـد منـه، يصـوره لنـا وكأنه يقبل عليه باختياره في لهفة وشوق، ولفظه "نجرب" عميقة الدلالة هنا لما تتضمنه من إيجابية وقوة، وذلك لأن التجربة فعالية وإرادية يقوم بها الإنسان واعيًا، وهـي بهذا تختلف اختلافاً جوهرياً عن الموت الذي هو استسلام سالب لا مفر منه لعوامل الانحلال والسكون"[11].

أما الهمشري، فقد كانت فكرة الموت عنده أكثر وضوحاً وتميزًا منها عند الشابي، حتى ربطت نازك الملائكة[12] بينه وبين الشاعر الإنجليزي "كيتس"، شاعر الموت المفتون الأكبر، حيث كان أي حادث يرتبط بإحساسه لا بد أن يذكره بالموت، وليس أدلّ على ذلك من قصيدته "العودة" التي تعيد إلى ذهنه ذكرى القمة العليا للحياة، تلك القمة التي يبلغها الإنسان بالموت حيث يقول وهو عائد إلى قريته:

أموت قرير العين فيك منّعما

يخدرنى فيك نفح من المرج عاطر

ويلحقنى هذا البنفسج ولتكن

مسارح عينى.. الربى والمخاضر

وآخر ما أصغى إليه من الصدى

خريرك يغنى وهو في الموت سائر.[13]

فقد رسم الشاعر الصورة هنا بشيء من التقابل، فهل يجتمع العطر والبنفسج وخرير الماء... مع شاعرٍ يموت سكران مخدرًا بجمال الطبيعة في قريته؟! إنها العذوبة التي وجدها الشاعر في تذكرة لرحلة الموت بعد الحياة.

صورة الموت في شعر عزيز فهمي:

أما عند شاعرنا فنجد تلك الصورة الرومانسية الحالمة للموت، والتي يلتقي فيها مع الشابي والعمشري، حيث يرى أن الموت رحلة من الدنيا إلى وادٍ بعيد وذلك بعد أن يكثر ويعود الاستفهام التي تدل على نفس حائرة بميل رأس....

ولكم ساءلت نفسي حائراً ... حيرة السارى بليل ذى شجون
ما وجودى؟ ما سبيلى؟ من أنا؟ ... ما جهادى؟ ما مصيرى بعد حين؟[14]

ثم يقول:

يا بنى أمى لقد جدَّ نوى ... وغداً يجمعنى وادٍ شطون
لا تقولوا مات في شرخ الصبا ... ذلك الحق تجلى واليقين
ليس منى من بكانى فارعووا ... لن يرد الدمع محتوم المنون[15]

ثم يوضح أن الحياة قيود وأصفاد عليه أن يحطمها ويتخلص منها، ولا خلاص من هذه الأصفاد إلا بالموت حيث الانطلاق والحرية لعالم جديد:

لا تقولوا ليته عاش! فقد ... فارق الأصفاد عصفور سجين
شاقنى الخلد كما شاق القطا ... سلسبيل في عقاب وقرون
قد يضيق الغاب عن أسد الشرى ... ويضيق الوكر عن طير حرون[16]

ثم يناشد أهله بإقامة الأفراح حول قبره، لأنه من تمنى هذه الأمنية العزيزة "الموت" ويخاطبهم ألا يحزنوا بعد موته، فهذا من الخطإ في رأيه، وعليهم أن يتجمهروا حول سريره، ويرقصون، ويعزفون...

فقد عاش مرفوع الجبين في حياته، وعليهم بعد ذلك كله أن يتركوه في قبره ولا يزعجوا صمته بحنينهم إليه:

كللوا بالغار فرعى واهتفوا ... في جلال الموت بين الهاتفين

واشـــربوا نخـــبى في حفـــل كمـــا كنـــتم يـــوم انتصـــارى تفعلـــون
وارقصـــوا حـــول ســـريرى واعزفـــوا وامـــلأوا الجـــو بعطـــر اليـــاسمين
وليقـــل مـــن شـــاء مـــا شـــاء فحســـبى أن قـــد عشـــت مرفـــوع الجـــبين
لم يضعضـــع عـــزمتى حيـــف الليـــالى ولم يقعـــد بهـــا حـــظ غـــبين
قبلـــــونى قبلـــــة أخـــــرى ولا تزعجـــوا صـــمتى بترجيـــع الحـــنين[17]

بـل عليكم أيضـاً أن تنشـدوا شـعري، حيـث يحمـل آلامـي وآمـالي، وهـو صـدى لروحـي الحزين...

وانشـــدوا شـــعرى قيامـــاً هكـــذا ينبغـــى أن ينشـــد الشـــعر الرصـــين
هـــو وحـــىُ نزلـــت آياتـــه في قـــواف نظمهـــا النســـج الوضـــين
هـــو آلامـــى وآمـــالى معـــاً ونجـــاتى وصـــدى روحـــى الحـــزين
ولـــو أنـــى عشـــت علَّمـــت الحمـــام وســـاجلت الكراكـــى والعيـــون

ثم يختمها بنفس المعنى الذي بدأ به وكأنه مازال يردد الحيرة والقلق ويكثر من السؤال، والاستفهامات القلقة:

رتلـــوا شـــعرى وغنـــوا مـــن أنـــا؟ مـا جهـادى؟ مـا مصـيرى بعـد حـين؟[18]

ولعل الشاعر في هذه القصيدة التي رسم فيها صورة لموته الحالم السعيد متأثر إلى حد بعيد بالصورة التي رسمها "العقاد" للموت، حيث تخيله كأساً شهية حلوة، ينبغي أن تعزف لها الألحان، ويغني فيها المغنون... حيث يقول:

إذا شـــيعونى يـــوم تقضـــى منـــيتى وقـــالوا أراح اللّه ذاك المعـــذبا
فـــلا تحملـــونى صـــامتين إلى الثـــرى فـــإنى أخـــاف اللحـــد أن يتهيبـــا
وغنـــوا فـــإن المـــوت كـــأس شـــهية ومـــازال يحلـــو أن يُغـــنى ويُشـــربا
ومـا الـنعش إلا المهـد مهـد بـنى الـردى فـلا تحزنـوا فيـه الوليـد المغيبـا
ولا تـــذكرونى بالبكـــاء وإنمـــا أعيدوا على سمعى القصيد فأطربا[19]

وفي قصيدة أخرى يظل عزيز فهمي يلهج بهذا المعنى حيث يقول:

مرحبـــاً بـــالموت أنـــى جئتنـــا في خريـــف العمـــر أو نيســـانه
أنـــا لا أبكـــى علـــى روض جنيـــتُ قتـــاد الشـــوك مـــن أغصـــانه[20]

وهكذا يبدو ولع الشاعر بالموت ومظاهره، وكأنه يشعر به، ويشعر بدنو أجله، وخاصة أنه توفى في ريعان شبابه.. فهل هناك من رابط أو علاقة بين هذا الولع الغريب بالموت، وبين الوفاة المبكرة...؟

هذا السؤال حاولت نازك الملائكة الإجابة عنه في حديثها عن هذه الفكرة عند الشعراء: الشابي- الهمشري- كيتس، وحاولت أن تضع عدة تساؤلات ثم أجابت عنها لتصل إلى الحقيقة في النهاية:

"فبماذا إذن، نعلل الظاهرة الغريبة؟ ولم كان هذا الحب الخصب للموت عند شعراء ماتوا في ريعان شبابهم؟ أكان الغرام يتصل بالوفاة المبكرة عن طريق الإيحاء على وجه ما؟ أم كان نتيجة لإدراك غامض للموت المبكر الذي ينتظر في زاوية من زوايا المستقبل القريب؟[21]

إلى أن قالت معللة لهذه الظاهرة:

"هناك صفة مشتركة بين هؤلاء الشعراء يملكونها جميعاً على شيء من التفاوت، وهي حدة الإحساس أو القدرة على الانفعال العنيف، وهي صفة لا يملكها المتوسطون من الناس ولعل هذا من حسن حظ الإنسانية، ذلك أن الانفعال إسراف في الطاقة لا ترضاه الطبيعة، والحق أن الطبيعة تمقت الإسراف في الجهات كلها، وتعمل جاهدة على رد الحياة البشرية إلى الاعتدال الذي يضمن لها البقاء.[22]

ولعل صاحبنا- كغيره من شعراء الرومانسية- قد أسرف في أحزانه وهمومه وتطلعه إلى عالم مثالي أفضل، وهذا المعنى يلح عليه كثيراً في شعره، ويمزجه بشيء من الأسى والعتاب والشكوى، وكثرة الدمع الذي لا يجدي نفعاً:

لـــو كـــان دمعـــى مـــذهبا أشـــجانى مـــا بـــت يومـــاً في الحيـــاة أعـــانى
إنـــى وإن طـــال البكـــا لمعـــذبٌ دامـــى الفـــؤاد مقـــرح الأجفـــانى
مـــاذا جنيـــت لكـــى أعـــيش معـــذباً تُفْنـــى شـــبابى كثـــرةُ الأحـــزان[23]

ثم يتوجه إلى الدهر مخاطباً إياه أن يترفق به، وأن يخفف عنه ما يعاني، وألا يمعن في إذلاله:

يـــا دهـــر رفقـــاً قـــد غـــدوت معـــذباً أمســـى وأصـــبح في دجـــى الأشـــجان
في كـــل يـــوم حـــادث وملمـــة تـــدعو الوليـــد إلى المشـــيب الـــدانى
فـــالعين تبكـــى والفـــؤاد مقـــرح والعمـــر يقضـــى والحبيـــب ســـلانى
والـــدهر يرجـــو أن أذل لبطشـــه والجـــد يـــأبى أن أذل لثـــانى
يـــا دهـــر لا تـــك قاســـياً متـــذمراً حتـــى أقـــوم بواجـــب الأوطـــان
ومـــن التخـــاذل أن أراك مجـــرداً سيف القتال على الضعيف الفانى[24]

هذا كله أدى به إلى أن أصبح يقول:

جفـــنى وجســـمى والفـــؤاد ببـــاطنى بـــاك ســـقيم دائـــم الخفقـــان[25]

وكان يظن أن راحته في نظم الشعر الذي يخفف عنه آلامه، حيث إنه البلسم للجرح والعزاء للنفس...

ولقـــد نظمـــتُ الشـــعر شـــيمة معشـــر حســـبوه يعقـــب راحـــة الســـلوان
يـــا شـــعر أنـــت لجـــرح قلـــبى بلســـمٌ وعـــزاء نفســـى في خطـــوب زمـــانى[26]

فهذا الإسراف الشديد، والمبالغة في الأحزان، ولوم الدهر والعتاب "لا بد وأن تؤدي بالشاعر إلى أن يستنفذ قواه الروحية والشعورية في بضع سنين، ثم يقف لاهثا فجأة ويضطر إلى أن يموت، فالانفعالية تشبه الاحتراق، لأنها تجعل الشاعر ضعيفاً إزاء مظاهر الحياة المحيطة به فكل جمال يعصف بقلبه، وكل اتساق يملأ مشاعره بالحماسة الطافحة، وهذه حالة تصبح فيها قيمة الأشياء المحيطة بالشاعر أغلى من حياته نفسها".[27]

فالشاعر الانفعالي مسرف بطبعه، وإن أدى هذا الإسراف إلى موته، لا بل إنه يسرف لكي يموت، وهو يمنح الأشياء كلها قيماً جمالية أعلى من القيم التي يمنحها الفرد العادي إياها، ومن ثم يتكون في حياة الشاعر الانفعالي مثلث من القيم زواياه الثلاث هي الانفعال والشعر والموت، فالشاعر يحب الانفعال لأنه يؤدي إلى الشعر، على أنه يلاحظ أن الانفعال هو الموت لأن الأول طريق محتم إلى الثاني... ومن ثم تبدأ مرحلة من الغرام بالموت نفسه تقابل

الغرام بالشعر حتى تصبح الألفاظ الثلاثة في معنى واحد، إنها مرحلة يندغم فيها الطريق بالغاية التي ينتهي إليها في وحدة متينة لا انفصام لها.[28]

وهذه الانفعالية المبكرة عند شاعرنا جعلته يلتفت إلى الموت ومعانيه مبكراً، حيث لم يكن بمعزل عن أصحابه، والبيئة العامة المحيطة به، لذلك نراه يشارك بقوة في رثاء مَنْ حوله من الأصدقاء والشعراء، وبعض السياسيين، وكان للقسم الثاني حظ وافر من شعر الرثاء عنده، حيث رثى الشاعر أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، خليل مطران، علي محمود طه... ومن السياسيين: سعد زغلول، عمر المختار.

ويطالعنا رثاؤه لصديقه "محمد عبد الهادي علي"[29] في قصيدة طويلة امتدت لتصل إلى (96) ستة وتسعين بيتاً من الشعر ويبدو في هذه القصيدة طويل النفس نسبياً لشاعر مثله، حيث إن قصائد الرثاء معروف عنها عدم الإطالة، وخاصة إن كان المرثي صغير السن.

وقد بدأ الشاعر القصيدة مباشرة بالحديث عن الموت، وبلا مقدمات تشغله عن فقد صديقه، الذي كانت بدايته طيبة تنبئ عن مستقبل ينتظره كالورد في ريعانه.. لكن ما لبث أن ذبل وفارق الحياة وكأن الموت خطف الأمل المرجو في ريعان الشباب. حيث يقول:[30]

ناشئ كالورد في أغصانه ... مات مثل الورد في أسنانه
وكزغب الطير لما تنتشر ... ناشئات الريش في جثمانه
وكغصن من غصون البان في ... جنة العمر وفي رضوانه
ساهم الوجه عليه صفرة ... من هشيم النبت أو حوذانه
عصف الموت به في دوحة ... كيف ينجو البان من أحيانه

ثم ينتقل إلى بيان صفاته المعنوية والجسدية، وكيف أن الشعر أخذ يواسيه في صاحبه، الذي كان يرجوه، كما يظهر مدى بره بوالديه، وكيف أنه كان شديد الحدب عليهما، وليس ذلك فقط، بل كان شديد الحفاوة بكل من يلقي من الناس:

ليس بدعاً أن يواسيني قريـ ... ـض كفيض الماء أو تشنانه
إنما أرثي زميلاً فاضلاً ... كان مرجوا لدى إخوانه
وأثيراً عند أهليه و بـ ... ـراً بهم يُسر في تحنانه
ونبيلاً وعطوفاً وحفياً ... بمن يلقاه من خلصانه[31]

ثم يظهر مناقبه العلمية:

ملكتـــــه شـــــهوة العلـــــم فجـــــ جنونـــــــاً بجـــــــنى عرفانـــــــه
أوقـــــف الـــــنفس عليهـــــا لاهيـــــا عـــــن شـــــباب لجّ في إيهانـــــه[32]

وبعد ذلك يخاطب الموت أن يترفق به، حيث أصبح كمن شاب في ريعانه...

ســـــاهر الليـــــل ترفـــــق ســـــاعة بشـــــباب شـــــاب في ريعانـــــه
مـــــا لهـــــذا الغـــــرس لم يثمـــــر جنـــــى أغفـــــا الـــــزارع عـــــن بســـــتانه
لا وشـــــعرى مـــــا ســـــقاه جـــــدول بـــــل ســـــقاه القلـــــب مـــــن نعمانـــــه[33]

ولا ينسى شاعرنا الحكم والأمثال التي تذم الدنيا والبقاء عليها:

مثـــــل الـــــدنيا كنـــــادى ميســـــر مـــــا احتيـــــال المـــــرء في ســـــهمانه
غضـــــرب يهلـــــك جوعـــــاً ظبيـــــه يحـــــبس الخـــــير علـــــى جعلانـــــه
منـــــبر قـــــال عليـــــه باقـــــل وهـــــو نـــــزّاع إلى ســـــحبانه[34]

ثم يخاطب القبر مسلماً عليه وداعياً لصديقه بالسقيا في صورة تراثيه على عادة الشعراء العرب في هذا الباب:

أيهـــــا القـــــبر ســـــلاماً عـــــاطراً وســـــقاك الغيـــــث مـــــن فرتانـــــه[35]

أما أثر موت صديقه على والديه فيظهرها في أبيات تدل على الحسرة واللوعة التي أصابتهما في فلذة كبدهما، حيث الوالد الشيخ- لما لهذه الكلمة من دلالة وخاصة عندما يبكي بحسرة لفراق ولده- المكلوم الذي يتعجب من أن الطبيعة لم تتأثر لهذا المصاب الجلل، فهذه الشمس وهذا القمر... الصبح- الليل.. كلها هذه تسير لا عليها... أما الأم الثكلى الباكية فلو سمعتها... لتمنت أن تفتدي الفقيد حتى تخفف عنهما هذا المصاب ولكن هيهات:

لـــو رأيـــت الشـــيخ يبكـــى بعضـــه قـــــائلاً والـــــدمع في تهتانـــــه
هـــــذه الضـــــحاء غابـــــت معزبـــــاً وأوى البـــــــدر إلى ديوانـــــــه
ثـــم عـــاد الصـــبح والليـــل وعـــا د كـــــلا الـــــبرجين في إبانـــــه
ولأنـــت الشـــمس والبـــدر معـــاً لبصـــــير كـــــف في أحزانـــــه

أو سمعت الأم تبكي بحنين خفي الصوت أو مرنانه
لتشهيت فداه راضياً لو يعيد الميت من جبانه[36]

والشاعر هنا لا يمل التفكير في الموت، وضرب الأمثال، والتماس الموعظة، وهذا الجمع بين الرثاء وضرب الأمثال فيه لوعة النتائج، وحكمة المتفكر الواعظ مع حسرات الموتور..."[37]

ويبدو ذلك واضحاً عندما يتوجه بالعزاء إلى والدي الفقيد، معزيا ومحاولا تخفيف المصاب عنهما:

يا أبي صبراً جميلاً خاشعاً ما توانى القلب عن سلوانه
كفكفي يا أم دمعاً قانياً كعقيق الدر أو مرجانه
فمقام المرء في الدنيا اغتراب وإن طال مدى إيطانه
إن يكن قد مات في شرخ الصبا فهو أحظى برضى رحمانه
إن يوم المرء مثقال له أو عليه جد في ميزانه
مرحباً بالموت أنى جئتنا في خريف العمر أو نيسانه
أنا لا أبكي على روض جنيت الشوك من أغصانه[38]

ثم يعود إلى ذم الدنيا، وعدم الاكتراث بها... والإيمان بالموت حيث إنه سبيل كل حي... وبعده سيحاسب الإنسان على ما قدم في دنياه...

إنما يبكي على الدنيا فتى خيم الموت على وجدانه
أو عزيز في مجانات الصبى شول بز على أقرانه
نفخ الشيطان فيه فعلت كفة الآثام في ميزانه
مشفق من هول وعد صادق يوم يدعوه إلى ديانه
نافخ الصور، منقادُ وفي لهف يبحث عن شيطانه
يوم لا ينفع مال أو بنون وفي القلب صفا أدرانه[39]

ويتضح من هذه الأبيات مدى استخدام الشاعر للتناص القرآني الذي ظهر في مواضع عديدة من هذه القصيدة حيث لجأ الشاعر إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[40] ويقصد بذلك يوم القيامة.

وكذلك قوله مصورًا واقع الدنيا والحياة يوم القيامة:

يوم يندك عسيب ويطير كطير العهن من حيوانه[41]

حيث نظر إلى قوله تعالى: "يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن"[42]، وقوله تعالى: "وتكون الجبال كالعهن المنفوش".[43]

وفي نهاية القصيدة يتوجه إلى صديقه الفقيد، وكأنه يهنئه لولا حرقة الموت، ويخبره أن الدنيا لم تتغير بعده:

يا سمير الدود في وادى البلى	وطليق الروح في رضوانه
كدت لولا حرقة الموت أهنيك	بالموت، على أشجانه
قم تر الحق هضيماً مثلما	كان في الغابر من أزمانه
وترى البغى هضباً جامحاً	أرسل المشدود من أرسانه[44]

ثم يطلب من صاحبه أن يحدثه عن الموت، وعن عالم الروح وكيف أن الحديث عن الموت عنده يعمر النفس الخراب ويحيي غفلة القلب المنشغل بالدنيا وهمومها، ولن يأتي ذلك إلا بذكر الصناديد والشجعان والذين حكموا وطغوا في الدنيا... حدثنا عن هؤلاء، وأحوالهم بعد الموت، حتى يصحو الإنسان من غفلته وسكرته عنها إلى الحقيقة في هذه الحياة. وكأنه بذلك يحقق الهدف من هروبه من الحياة معنويا عندما يتجه لصاحبة المتوفي، في حوار عمن سبقهما إلى الموت من الطغاة والجبارين وطبيعة الموت وحقيقته:

قم فحدثنا عن الموت وعن	عالم الروح وعن سكانه
قم نعمر هذه النفس الخراب	وأحى القلب من غفلانه
واذكر الصيد الصناديد الأولى	نصروا الإسلام في حدثانه
شمرت عن ساقها الحرب	فكانوا لظى الله على خصمانه
دوخوا الدنيا فكسرى شارد	ينعق اليوم على إيوانه

وهرقـــل الـــروم ينعـــى ملكـــه بـــين صـــرعى الحـــرب مـــن أعوانـــه[45]

ثم ماذا بعد الموت ينتظر من حديث يجعلنا لا ننتظره بل نتمناه سعداء غير مبالين بالدنيا، حدثنا عن الخلد، وعن الطهر... عطر نفوسنا من شذا الحديث عما ينتظرنا...:

قـــم فحـــدثنا حـــديثاً مســـتطابا عـــن الخلـــد وعـــن ولدانـــه
وانثـــر الســـحر علـــى أسماعنـــا مـــن جمـــان النثـــر أو عقبانـــه
إن وصـــفت الحـــور والعـــين اللـــوا تـــى وعـــدناهن مـــن نســـوانه
قـــم فأنشـــدنا نشـــيداً عبقريـــاً يحـــار الفـــن في ألحانـــه
قـــم فحـــدثنا عـــن الطهـــر فعطـــ ر نفوســـاً مـــن شـــذى ظيـــان[46]

وفي نهاية القصيدة يعود مذكراً أنه فارق الحياة نضير العود في ريعان شبابه، وأنه لن ينساه، وفي الذكر له حياة دائماً، حيث أن ذكى الحزن يبقى بعده يملأ الأرض من شذى ريحانه.

أما الشعراء:

فقد رثى عزيز منهم- كما ذكرنا سابقاً- "حافظ إبراهيم- شوقي- مطران- علي محمود طه..." حيث أفرد لكل منهم قصيدة خاصة.

أما رثاؤه لحافظ إبراهيم[47]، فقد بدأه بالحديث عن طيف الخيال، وهو كثيراً ما يبدو في المقدمات الغزلية العربية، وخاصة القديمة منها، ثم يستند إلى ذكر أسماء المعشوقات- العربيات كنوع من إظهار الحسرة والأسى... وكيف لا يذكر ذلك وهو في حضرة رثاء شاعر كبير، وعظيم القامة كحافظ إبراهيم، حيث اتخذ من حنينه إلى المعشوقة الرمز- وصبره على فراقها مدخلاً طيباً إلى إظهار رشده التوجع والفجيعة التي أصابته بعد سماعه خبر وفاة الشاعر حيث يقول:

دنـــا الطيـــف يـــا ليلـــى ومـــازال ســـارياً خـــذى لـــى مـــن الطيـــف الأمـــين أمانيـــا
فعهـــدى بطيفـــى مثـــل طبعـــك عازفـــاً وعهدى - بطيفى مثل عهدى - وافيا
أحـــن إذا شـــط الخيـــال، وإن دنـــا فرقـــت وطـــارت شـــعبة مـــن فؤاديـــا
وإنـــى لصـــبار علـــى كـــل غمـــرة فمـــا بـــال أنفاســـى صـــدعن التراقيـــا
كـــأن فـــؤادى يـــوم قيـــل "محمـــد" جنـــاح عتيـــق بـــات في الـــنفخ هافيـــا[48]

ثم يذكر أثر ذلك عليه وعلى صاحبيه (شوقي وخليل مطران)

تجرعـــت فيـــك الكـــأس حتـــى ثمالـــة ... أغـــص بمـــا فيهـــا فيـــزداد مـــا بيـــا
بنـــا منـــك مـــا لـــو كـــان بالنـــاس بعضـــه ... لجـــزوا رقابـــاً أو لشـــقوا النواصـــيا
ولمـــا رأيـــت الصـــبر عـــز طلابـــه ... زجـــرت لســـانى فيـــك ثـــم بـــدا ليـــا
سميـــاك شـــوقى والخليـــل تهيبـــا ... أعـــذت الوفـــا لمـــا اتهمـــت بيانيـــاً
فأعـــذرت وحـــدى لـــيس للعشـــر حيلـــة ... وأســـرف في اللـــوم العـــزول تماريـــا[49]

وكيف أنهما- شوقي ومطران- بعد الأربعين على وفاته لم يتقدم أي منهما لرثاء صاحبه، وخاصة شوقي الذي يرثي الجميع...

وكـــرت عليـــك الأربعـــون فهـــل نـــوى ... خليـــل مطـــران وصـــان رجائيـــا؟
وعهـــدى بشـــوقى كالخضـــم تـــدفقاً ... فمـــا بـــال شـــوقى اليـــوم أطـــرق ســـاهيا!
وشـــوقى الـــذى يرثى الشموس إذا هـــوت ... فيبعثهـــا بعـــد المغيـــب كمـــا هيـــا[50]

كأن التقاعس أمر شائع بين الجميع وليس الشعراء فقط- عند رثاء حافظ إبراهيم ولذلك فقد:

أهبـــت بهـــذا الشـــرق دهـــراً ولـــو صـــحا ... لهـــوم مـــن نـــوم وحمـــى ليالـــيا
وناديـــت قومـــاً في حمـــى النيـــل نومـــا ... فرجـــع واديـــه الصـــدى متناديـــا
لقـــالوا صـــحونا طـــال والله نومنـــا ... وكـــان عميقـــاً ذلـــك النـــوم هانيـــا[51]

ثم كشف طبيعة القوم المتقاعسين عن الرثاء وموجهاً لهم اللوم والعتاب، معتمداً في ذلك على أسلوب التكرار، وكأنه يستنكر هذا التقاعس منهم في حق قامة سامقة كحافظ.

عتبـــت علـــى قـــومى وفـــيهم ملالـــة ... ولـــو شـــغفونى مـــا ادخـــرت عتابيـــا
عتبـــت علـــى قـــومى، وحســـبى ناصـــح ... ولـــو شـــاء قـــومى بلغـــونى مراديـــا
عتبـــت علـــى قـــومى ومازلـــت عاتبـــاً ... وعهـــدى بقـــومى يـــؤثرون المحابيـــا
إذا دوهنـــوا قـــالوا حبيـــب ملاطـــف ... وإن جوبهـــوا ولـــوا غضـــاباً نواعيـــا
فلســـت إذا شـــئتم حبيبـــاً وإنمـــا ... أنـــا الجـــاهلى الجلـــف طبعـــى حـــلا ليـــا[52]

ومع هذا التقاعس كله من الشعراء والأدباء... إلا أنك:

تعـــض عليـــك اليـــوم مصـــر بنانهـــا ... وفي الشـــرق أصـــداء تجيـــب النواعيـــا
ومـــا أنـــت إلا في الجـــوانح والحشـــا ... إذا اقتســـم الـــدود العظـــام البواليـــا
وإنـــك مـــيراث يورثـــه عـــدا ... بنونـــا بنـــيهم، والبنـــون الـــذراريا[53]

ثم يبين أثره كشاعر.. وكيف تأثر الشعر، والقوافي من بعده، ويذكر أنه متمكن من صنعته، ممتلك لأدواته..

ألســـت العصـــامى الـــذى انتعـــل الـــدما ... ومـــا آب إلا مـــن وحـــى الســـير حافيـــا
تـــروم القـــوافي وهـــى جـــد عصـــية ... فتنظمهـــا عقـــداً علـــى الـــدهر باقيـــا
وتودعهـــا المعنـــى البعيـــد ولفظـــه ... إذا رامـــه المطبـــوع ألفـــاه نائيـــا
وأقـــرب مـــن حبـــل الوريـــد عصـــية ... إليـــك، إذا مـــا رمتـــه جـــاء ســـاعياً[54]

ولذلك فقد:

خـــلا ذلـــك الـــوادى وقـــد كنـــت أنســـه ... وقمريـــه الشـــادى فأصـــبح خاويـــا
وصـــوّح هـــذا الـــروض بعـــد بشاشـــة ... وأقفـــر مغنـــى كـــان بـــالأمس حاليـــا[55]

ثم ينهي القصيدة على عادة القدماء- بالدعاء بالسقيا، ويعود بعد ذلك لما بدأ به في مطلع القصيدة من الحديث عن طيف الخيال، والغزل الصناعي، وذكر ليلى... وأثر محنة الفقد عليه.[56]

رثاء أحمد شوقي[57]:

رثى عزيز أحمد شوقي بقصيدة طويلة- إلى حد ما- وصلت أبياتها إلى اثنين وستين بيتاً، اعتمد فيها على البداية البدوية التقليدية، وبراعة الاستهلال، وكأنه ينزع إلى ذلك متعمداً في رثاء شاعر عملاق بقامة شوقي، مستخدماً لمعجم لغوي خاص يؤكد ما يرمي إليه.

أســـر بـــك الهـــم أم أســـرت بـــك الهمـــم ... قلـــب علـــى نُـــوَب الأيـــام يحتـــدم
مـــازال يحـــدو بآمـــالى وتتبعـــه ... حتـــى تشـــابهت الأنـــوار والظلـــم[58]

ثم يظهر مدى مصابه وفاجعته، مخاطباً ساري البرق، نسيم الصبار، الحمام المهيج للأحزان والآلام على عادة الشعر العربي القديم، فنوح الحمام، مخاطبة البرق، والنسيم، كلها دلائل وجدانية قديمة..

يـــا ســـارى الـــبرق وهنـــاً بـــين أضـــلعنا ... نـــــار مؤججـــــة تخبـــــو وتضـــــطرم
يـــا ســـارى الـــبرق عـــج بـــالله متئـــداً ... إلى الأمـــــام جزتـــك الـــريح والـــديم
فقـــف إليـــه وبـــدد بعـــض وحشـــته ... ولا تروعـــــك في صـــــحرائه الظلـــــم
ويـــا نســـيم الصـــبا لا زلـــت مؤتمنـــا ... مـــا عـــاود الشـــعراء الوجـــد أو وهمـــوا
أقـــر الســـــلام ولا تبخـــل بناديـــة ... يعطـــر القفـــر منهـــا وابـــل رذم
ويـــا حمـــام لقـــد هيجـــت لـــى طربـــاً ... لحـــنى ولحنـــك شـــعر آيـــة الألم
نـــح يـــا حمـــام فقـــد أوريـــت لـــى حرقـــاً ... نـــح يـــا حمـــام كلانـــا ســـادر ســـدم
جـــارت علينـــا الليـــالى في بلهنيـــة ... والعـــيش في رفـــه والشـــمل ملتـــئم[59]

إلى أن يتوجه إلى الكرمة- كرمة ابن هانيء- التي اتخذها الشاعر بيتاً له، ويبين مكانتها عند الشاعر، ومدى ما أصابه بعد هذا المصاب الجلل:

يـــا كرمـــة نادمـــت جبريـــل واســـتمعت ... لهـــا العيـــون وولـــت وجههـــا الأمـــم
دعـــوت دمعـــى ودمعـــى لا يطـــاوعنى ... ولـــذت بالصـــبر حتـــى كـــدت أتهـــم
لـــو شـــئت لبيـــت هـــانى في حفاوتـــه ... وكـــم دعـــانى فلبـــى الـــروح والحلـــم
لكـــن تبعـــت هـــو نفـــس موزعـــة ... بـــين الضـــلال وبـــين الهـــدى تلـــتطم
ورب دار أوليهـــــــا مجانبـــــــة ... قلـــبى يطـــوف بهـــا والـــروح تســـتلم[60]

ثم يتعرض لمكانة شوقي بين شعراء عصره، ويذكر مبايعة الجميع له بإمارة الشعر:

وأنـــت شـــوقى الـــذى خفـــت لبيعتـــه ... الهنـــد والشـــام والبطحـــاء والعجـــم
نجـــوت منهـــا بـــإذن الله وانطفـــأت ... لـــولا العنايـــة لم تســـلم ولا ســـلموا[61]

ولا يفوت الشاعر أن يحدثنا عن مؤلفات شوقي المسرحية، وخاصة ما تناول فيها التراث مثل: مجنون ليلى، قمبيز، عنترة، مصرع كليوباترا... وكأنها محاولة للفخر على لسان الشاعر:

قـــالوا الجديـــد فقـــل هـــاتوا جديـــدكم هـــاتوا الجديـــد لعـــل الأمـــر ينحســـم
هـــــذا "قـــــديمى" في المجنـــــون آيتـــــه هـــاتوا الجديـــد وإن شـــئتم فنحـــتكم
هـــــذا "جديـــــدى" قمبيـــــز وعـــــنترة وكليوبـــاترا وأنطونيـــو وإن قـــدموا[62]

ثم يعود للتراث، وكعادة العرب في قصائد الرثاء حيث كانوا يعددون مآثر الميت، ويكثرون من "الأينات و"من لـ..." لما في ذلك من إظهار الألم، والتوجع ومدى ما كان للميت من مآثر وأفضال:

مـــن للقـــوافي يقـــيم اليـــوم آبـــدها إذا دعتـــه دعاهـــا وانتشـــى القلـــم
إذا مثلـــت لعـــينى رحـــت أســـألها طيـــف تـــأوبنى أم عـــادنى حلـــم[63]

ثم يختم القصيدة بإشارة تذكرنا بما قاله المتنبي في عتابه لسيف الدولة، وأن عزاءه الوحيد أنه سيلقاه بعد الموت في دار الآخرة:

شـــوقى وفيـــت وهـــذى بعـــض موجـــدتى حبـــات قلـــبى إلا أنهـــا كلـــم
ســـلى علـــى الحـــزن أن ســـوف يجمعنـــا بعـــد الفـــراق معـــاد بعـــده أمـــم[64]

رثاء خليل مطران:[65]

رثى عزيز مطران بقصيدة واحدة لم تتعد أبياتها السبعة عشر بيتاً، وقد ألقاها في عزائه له عندما أنابه "النحاس باشا" عنه في هذا العزاء.

وقد جاءت القصيدة بلا مقدمة، أو حديث عن الموت، وحكمة القدر، كما فعل مع غيره ممن رثاهم كحافظ وشوقي، وإنما جاءت بدايتها مباشرة.. حيث أشار فيها إلى الاتجاه التجديدي الذي قام به خليل مطران، وكيف أنه كان ثالث ثلاثة (حافظ إبراهيم- أحمد شوقي- خليل مطران) كانوا رموز البيان، ثم ما لبثت راية القريض أن نكست بعد عزة:

شـــاعر هـــز دولـــة الشـــعر هـــزا ســـاجلته الطيـــور دهـــراً فبـــزا
لم يفتـــه الجديـــد فـــافتن فيـــه واتخـــذناه للبـــداوة رمـــزا
ثالـــث اثـــنين لم يـــزل يتأســـى مـــن تغنـــى بشـــعرهم أو تعـــزى
نكســـت رايـــة القـــريض بـــوادٍ كـــان في ســـالف الأزمـــان الأعـــزا[66]

ثم يتوجه إلى القبر مخاطباً:

أيهـــا القـــبر مـــا حويـــت رفاتـــاً إنمـــا اســـتود عـــوك يـــا قـــبر كنـــزا
غـــاض بحـــر لآلـــئ الشـــعر غاصـــت تحـــت أطبـــاق مائـــة حـــين كـــزا[67]

ثم يظهر أثر مصابه وفجيعته على الأقطار العربية جميعها وليس لبنان فقط، معدداً مناقبه وصفاته الخلقية والمهنية:

إن لبنـــــان والعـــــراق كلـــــيم والمصـــاب الألـــيم في مصـــر حـــزا
فجعتهـــا الخطـــوب في شـــاعريها والمصـــاب الجديـــد جـــدد لغـــزا
ذلـــك الشـــاعر الـــذى عـــف نـــبلاً رب نبـــل أتـــاح للنقـــد غمـــزا
عـــف عـــن إرث صـــاحبيه إبـــاءً لا تظنـــوا الإبـــاء في النـــاس عجـــزا[68]

وكأنه- مطران- في البيت الأخير يشير إلى قوله في رثاء صاحبيه "حافظ وشوقي":

أيـــراد لـــى مـــن فضـــل مـــا مجـــدا بـــه إرث؟ إذن جهـــل الزمـــان وفـــائى[69]

ثم يتابع تعداد مآثره وصفاته:

أيهـــا الشـــاعر الـــذى عـــاش عفـــا ظـــاهر الـــذيل أخـــرق الكـــف نـــزا
لم يـــــدنس يراعـــــه بهجـــــاء أو يحمـــل لســـانه العـــف رجـــزا[70]

ولذلك فستكون النهاية المتوقعة لك ولكل إنسان بهذه الصفات الطيبة حيث إنك:

قـــد غرســـت النـــواة فاحصـــد جناهـــا كـــل نفـــس بمـــا توختـــه تجـــزى
وتســـــنم إلى الخلـــــود ســـــبيلا حفهـا الصبر، حسبك الخلد فـوزا[71]

رثاء علي محمود طه[72]:

أمّا الشاعر "علي محمود طه" فكان له نصيب أيضاً من رثاء عزيز فهمي، حيث رثاه بقصيدة واحدة عام 1950، وقد جاءت هذه القصيدة في حدود أربعة عشر بيتاً من الشعر، بدأها مباشرة بإشارة إلى صاحب الجندول- الملاح التائه- منذ المطلع وقد استخدم فيها العديد من المفردات التي تدل على هذا الملاح المسافر دائماً، الذي جاءه اليوم للتوقف عن

الترحال والسفر وطي شراع السفينة، وعودتها إلى شاطئها، مترنحة بين تقاذف الأمواج العاتية... وكأنا به يشير إلى نهاية الشاعر، ومفارقته للحياة.

وقد استخدم الشاعر من ألفاظ اللغة والصور الفنية المعبرة ما يعنيه رسم صورة كلية متكاملة ومترابطة الأجزاء والمعاني، حيث جعل عناصر الطبيعة الحية والصامتة تشارك في توضيح معالم هذه الصورة الحزينة على النحو الآتي:

طوى الشراع وألقى الناى وانسدا ... وآب من رحلة الأيام من سهدا
حداه جبريل فانسابت سفينته ... نحو الضفاف فلما كاد أن يردا
ترنح الزورق الحيران منحدراً ... مع الرياح ولما يبلغ الأمدا
تقاذف الموج مجداً فيه فانخلعا ... على الصخور فمال الفلك واتأدا
وردد البحر في ألحان شاعره ... لحن الوداع فضج الموج واحتشدا
ومالت الشمس خلف اليم غارقة ... وإنسان منه لواء الليل فانعقدا
وأذهل الكون صمت ظل متصلاً ... حتى تجاوب رجع اللحن واطردا[73]

فالشاعر في الأبيات السابقة شخص عناصر الطبيعة المحيطة، وكأنه أراد أن يجعلها تشاركه العزاء والتأبين للشاعر الفقيد:

فالشراع الذي انطوى يدل على نهاية الرحلة، وكأنه يقصد بها نهاية رحلة الشاعر في الدنيا، وكذلك الناي الذي ألقى...

فالسفينة التي انسابت نحو الضفاف- ترنح الزورق الحيران المنحدر مع الرياح مع أنه لم يبلغ هدفه بعد، الموج المتقاذف- الصخور- البحر المردد لحن الوداع- الأمواج الصاخبة التي ضجت واحتشدت حزناً على فراق الشاعر- الشمس الغارقة خلف اليم- لواء الليل المنعقد... الكون الصامت في ذهول...

كل هذه العناصر تضافرت في رسم هذه الصورة الكلية الحزينة للكون والطبيعة وكأنها جميعاً في مأتم لتأبين الشاعر.

أما الألفاظ فهي لا تقل دلالة على إظهار لحن الموت، وقد استطاع عزيز فهمي أن يوظفها توظيفاً دقيقاً يفي بالغرض من استخدامها مثل:

طـوى الشـراع- ألقـى النـاي- انسـدا- سـهرا- تـرنح- الحـيران- منحـدراً- تقاذف- انخلعا- لحن الوداع...

ولم يقف الشاعر عند هذه الصورة، بل تعداها إلى ذكر مناقب الشاعر الفقير فهو عنده شاعر البحر- شاعر الجيل- شاعر الحب- شاعر الثورة، الذي بنى مجدا للعربية لا ينكر...

يـا شـاعر البحـر هـذا البحـر مـدثر ... مـن الحـداد سـواداً بـدد الزبـدا

يـا شـاعر الجيـل هـذا الجيـل مفتقـد ... قيثـارة ذهبـت ألحانهـا بـددا

يـا شـاعر الحـب مـن للعاشـقين إذا ... مـا بـرح الشـوق أو أضـناهمو كمـدا

يـا شـاعر الثـورة الكـبرى ومشـعلها ... نـاراً تلظـى بهـا مـن جـار واضـطهدا

بنيـت للضـاد مجـداً لـيس يجحـده ... وحـق شـعرك إلا نـاقم حسـدا[74]

ثم يختم القصيدة مؤكداً على بقاء الشاعر حياً، بل وجديرا بالحياة في ضمائر الجميع، وإن فارقهم جسداً، وأصبح بعيد المزار، أما أنا- عزيز- فمازلت أسمع شدوك ولحنك الشجي الخالد وأنت في عالم الأرواح:

لأنـت حـى وثـاو في ضـمائرنا ... وإن بعـدت وإن فارقتنـا جسـدا

لأنـت حـى وفي سمعـى وفي خلـدى ... شـد وشـجى ولحـن خالـد أبـدا[75]

وكيف لا، والإنسان يبقى ويخلد بأفعاله الطيبة، والمتميزة في الدنيا، حيث تظل شاهداً على إبداع صاحبها، وتميزه.

رثاء عمر المختار[76]:

ومن المُلفت للنظر أن شاعرنا لم يرث في ديوانه إلا صديقاً له، وعدد معين من الشعراء، وهذا المناضل الفذ، البطل الذي دوخ المستعمر الإيطالي.

وربما توجه الشاعر برثائه "للمختار" لإعجابه ببطولاته العظيمة، حيث كان يجاهد للحرية والكرامة على الرغم من شيخوخته، ثم للنهاية المفجعة "حيث تم القبض عليه،

ومحاكمته محاكمة صورية، انتهت بشنق البطل أمام أبناء وطنه، وأمام الجميع، ثم نفذوا فيه حكم الإعدام، وبعد ذلك فصلوا رأسه عن جسده وأرسلوها إلى روما، ثم قاموا بإلقاء جثته في البحر، وصنعوا جثة من خشب ووضعوها في التابوت، ودفنوها في قبر أقاموا عليه حارساً طليانياً مسلحاً[77]".

وقد جاءت قصيدة عزيز فهمي في عمر المختار في ثلاثين بيتاً، بدأها مباشرة، وكأنه آثر أن يقدم حقيقة واضحة ويقرها، وهي أن الأبطال الشهداء لا يحزن على فراقهم، وإنما تقدم لهم التهاني على ما قدموا من شجاعة واستبسال في سبيل حرية بلادهم، من دحر الأعداء المحتلين، ويبين أثر ما قام به المختار.

ورفاقه من ملاحم الجهاد، وصوره الرائعة:

صبر الزمان وأمهل القدر ... هذا الجزاء الحق يا عمر
طردوا عليهم خزيهم ومضوا ... في موكبين الذل والخور
قم يا شهيد مؤذناً غرراً ... نذر الزمان وأوقف النذر
من كان في سمع الزمان وفي ... خلد السنين فعمره سير[78]

ثم يتحدث عن أثر محنة الصلب والشنق... وهول هذه الفاجعة لرجل في سن التسعين، ويبين كيف مات الشهيد مرتفع الهامة:

ضج المسيحُ وأحمد معه ... لما أطل السافح الدعر
صلبوك حياً كيف ساغ لهم ... يا للسماء لمن به ائتمروا
أعوامك التسعون لو شفعت ... خشعت يد الجلاد والبصر
فهويت إلا هامة نصبت ... يومين حتى ينشط الخبر[79]

ثم يظهر كيف مثل المستعمر الهمجي الغاصب بجثة البطل المغوار، مخالفين للأعراف والأديان، حيث تبرأ الأديان جميعها من هذا الفعل المشين، ويذكر براءة دين المسيح نسبة لديانة إيطاليا المسيحية:

ألقوا بجسمك في المحيط وما ... ضنوا على الحيتان أو قتروا
ومضوا برأسك طائرين على ... متن الهواء ليقرب السفر

حتـــى أتـــوا رومـــا علـــى ظلمـــإ كالفـــاتحين بنصـــرهم ســـكروا
بـــرئ المســـيح مـــن الـــذين شـــروا غضـــب الإلـــه وبـــئس مـــا اتجـــروا[80]

وبعد ذلك يتوجه باللائمة على الأمة المتخاذلة التي سمحت لهذا المستعمر الغاصب بهذا الفعل الدنيء، مستنكراً هذا الموقف المتخاذل:

إلى أن يتوجه إلى الشهيد بالنداء، لعلهم يثوبون لرشدهم، ويقومون من ثباتهم...

قـــم يـــا شـــهيد المجـــرمين وصـــح فـــيهم جهـــاراً أينمـــا انتشـــروا
قـــم يـــا شـــهيد الـــذابحين وصـــح هـــل مـــن دمـــى في كأســـكم أثـــر
قـــم في الســـماء مـــرتلاً فعســـى أن تنفـــذ الآيـــات والســـور
قـــم في الســـماء مـــرتدداً معنـــا يـــا قـــوم أنـــى ســـدتم اعتـــبروا[81]

ثم يختم القصيدة بالحكمة حيث يقول:

الملـــك للّه العزيـــز فـــإن ســـدتم بـــأرض ســـادكم قـــدر[82]

وكأنا به بهذا الختام يسلم بحقيقة القدر، وبرضاه التام به، حيث نهاية الإنسان المحتومة أنى كان هي الموت وفراق الحياة مهما كانت الظروف، حتى يحصل على الراحة التي فقدها في الدنيا بين الغدر والفجيعة من زاوية، والمبادئ والأخلاق من زاوية أخرى.

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- أبي شوقي: حسين شوقي- مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - دت

3- أعلام الجيل الأول من شعراء العربية في القرن العشرين: أنيس المقدسي - بيروت - سنة 1972 م

4- تطور الأدب الحديث في مصر - أحمد هيكل - دار المعارف - القاهرة سنة 1987 م.

5- حافظ إبراهيم "شاعر النيل" عبد الحميد الجندي - دار المعارف القاهرة - سنة 1981م.

6- حافظ وشوقي: طه حسين، مطبعة الاعتماد - القاهرة سنة 1933.

7- خليل مطران: محمد مندور - معهد الدراسات العربية، القاهرة سنة 1954 م

8- خليل مطران " الرجل الشاعر ": محمد عبد اللطيف السحرتي مصر سنة 1954 م.

9- ديوان الخليل: خليل مطران - ط دار مارون عبود - بيروت لبنان سنة 1975م.

10- ديوان عزيز: عزيز فهمي - سلسلة ذاكرة الكتابة، الطبعة الأولى، دار المعارف - القاهرة سنة 2005 م.

11- ديوان الشابي: أبو القاسم الشابي - شرح " غريد الشيخ " منشورات مؤسسة النور للمطبوعات - الطبعة الأولى - بيروت - لبنان 1999م.

12- ديوان العقاد: عباس العقاد - مطبعة وحدة الصيانة والإنتاج - أسوان سنة 1967 م.

13- ديوان المتنبي: أبو الطيب المتنبي - دار المعرفة - بيروت - دت

14- ديوان الهمشري: محمد عبد المعطي الهمشري، جمع وتحقيق: صالح جودت، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة 1974م.

15- الرومانتيكية: محمد غنيمي هلال - مكتبة نهضة مصر - القاهرة

16- شعراء مصر من 1900م - إلى 1990 م: عبد الله شرف، مجلد "13" الطبعة الأولى - الكويت سنة 2008 م.

17- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي: عباس العقاد، دار الهلال القاهرة سنة 1972م.

18- الشعر المصري بعد شوقي: محمد مندور، مطبوعات معهد الدراسات العربية - القاهرة سنة 1957م.

19- شوقي شاعر العصر الحديث: شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة سنة 1953 م.

20- عمر المختار " قدوة الجهاد " محمد حامد الحضيري دار غزلان للطباعة والنشر، الطبعة الأولى - القاهرة سنة 2002 م.

21- علي محمود طه " حياته وشعره ": السيد تقي الدين السيد، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ط الأولى القاهرة سنة 1964م.

22- علي محمود طه " الشاعر والإنسان ": أنور المعداوي، وزارة الثقافة والإرشاد - بغداد سنة 1965م.

23- قراءة جديدة في الشعر العربي الحديث: سعد دعبيس - الصدر لخدمات الطباعة - الطبعة الأولى - الإسكندرية - سنة 1990م.

24- قضايا الشعر المعاصر: نازك الملائكة، دار العلم للملايين الطبعة الخامسة - بيروت سنة 1978م.

25- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين " التاسع عشر والعشرين " الطبعة الأولى - الكويت سنة 2008 م.

26- معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى 2002م: كامل الجبوري، دار الكتب العلمية - بيروت سنة 2003 م.

27- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: عبد الله الطيب المجذوب ج 4 القسم الأول - الطبعة الأولى، الكويت سنة 1990م.

❖ **الدوريات:**

1- مجلة الأديب - نوفمبر سنة 1970 م.

2- مجلة البيان الكويتية: محمد حسن عبد الله " شاعر النيل بعد منتصف قرن " سبتمبر، سنة 1982م.

3- مجلة فصول: " شوقي وحافظ " عدد خاص سنة 1982م.

4- مجلة الهلال: " شوقي وحافظ " بمناسبة نصف قرن على وفاتهما - أكتوبر سنة 1982م.

الهوامش:

(1) قلق الموت: د. أحمد محمد عبد الخالق - سلسلة عالم المعرفة العدد: 111 ص6 - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت سنة 1987م.

(2) د / طه حسين - مقدمة ديوان عزيز فهي ص 9.

(3) انظر ترجمته في:

- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر، والعشرين المجلد 13 ص 94 ط الأولى - الكويت سنة 2008
- شعراء مصر 1900م - 1990م، عبد الله شرف ص 62 - 63 ط الأولى سنة 1993م المطبعة العربية الحديثة - القاهرة- مجلة الأديب عدد نوفمبر سنة 1970.

- معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م - كامل الجبوري - مجلد 3 ص 384 دار مكتب العلمية بيروت سنة 2003م.

(4) د/ سعد دعبيس - قراءة جديدة في الشعر العربي الحديث ص 91، ط الأولى - الصدر لخدمات الطباعة - الإسكندرية 1990.

(5) السابق ص 95

(6) د/ محمد غنيمي هلال " الرومانتيكية " ص 39 بتصرف يسير، مكتبة نهضة مصر - القاهرة.

(7) د/ طه حسين ديوان عزيز - المقدمة ص 9 – وما بعدها.

(8) السابق، ص 9.

(9) عبد الله شرف - شعراء مصر ص 62 - 63، في ترجمة الشاعر وحياته.

(10) أبو القاسم الشابي - ديوانه - ص 257 - شرح " غريد الشيخ " منشورات مؤسسة النور للمطبوعات - بيروت لبنان ط الأولى 1420هـ - 1999 م.

(11) نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر - ص 304 – 305، دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الخامسة سنة 1978.

(12) نازك الملائكة السابق ص 307

(13) محمد عبد المعطي الهمشري - ديوان الهمشري ص 193- 194 - جمعه وحققه صالح جودت - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1974.

(14) عزيز فهمي – ديوانه، ص 43

(15) عزيز فهمي ديوانه ص 43

(16) عزيز فهمي - ديوانه ص 43 - 44

(17) عزيز فهمي - السابق

(18) عزيز فهمي - ديوانه ص 44

(19) عباس العقاد - ديوان العقاد - مقطوعة بعنوان كأس الموت، مطبعة وحدة الصيانة والإنتاج - أسوان 1967 م.

(20) عزيز فهمي - ديوانه - ص 22

(21) نازك الملائكة - قضايا الشعر المعاصر ص 310

(22) السابق ص 311

(23) عزيز فهمي - ديوانه - ص 11

(24) السابق

(25) السابق

(26) السابق

(27) نازك الملائكة - قضايا الشعر المعاصر، ص 314.

(28) السابق ص 314 - 315.

(29) أحد زملائه في كلية الحقوق، الذي وافته المنية في 26 يناير سنة 1930.

(30) ديوان عزيز ص 18.

(31) الديوان ص 18

(32) الديوان ص 19.

(33) الديوان ص 19 - 20.

(34) الديوان: 21.

(35) الديوان: ص 21.

(36) الديوان: 21

(37) د/ عبد الله الطيب المجذوب - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ص 401 ج 4 القسم الأول - ط (1) الكويت 1990م - 1410 هـ.

(38) الديوان: ص 22.

(39) الديوان: ص 23

(40) سورة الشعراء: 88، 89

(41) الديوان ص 24

(42) سورة المعارج، الآيتان: 8- 9

(43) سورة القارعة، الآية: 5

(44) الديوان: 24

(45) الديوان: 25

(46) الديوان: 25

(47) انظر ترجمته في: أحمد أمين- مقدمة ديوان حافظ إبراهيم.

- مقدمة ديوان حافظ إبراهيم - أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر دار المعارف - القاهرة سنة 1987.

- طه حسين: حافظ وشوقي - مطبعة الاعتماد - القاهرة سنة 1933.
- عباس العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي - دار الهلال القاهرة سنة 1972.
- عبد الحميد الجندي - حافظ إبراهيم - شاعر النيل - دار المعارف - القاهرة سنة 1981.
- محمد حسن عبد الله - شاعر النيل بعد نصف قرن - مجلة البيان الكويتية - سبتمبر سنة 1982.

(48) الديوان ص 39.

(49) الديوان ص 39.

(50) السابق

(51) السابق ص 40

(52) السابق

(53)السابق

(54) السابق 40 - 41

(55) السابق

(56) انظر الأبيات 41- 42

(57) انظر في ترجمته:

حسين شوقي: أبي شوقي - مكتبة النهضة المصرية - د ت

- شوقي ضيف: شوقي شاعر العصر الحديث - دار المعارف - القاهرة سنة 1953.
- عباس العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي -
- مجلة فصول: شوقي وحافظ - 1982 - 1983.
- مجلة الهلال: " شوقي وحافظ " بمناسبة نصف قرن على وفاتهما عدد أكتوبر سنة 1982.

(58) الديوان 45

(59) الديوان 45 - 46

(60) الديوان 46

(61) السابق

(62) السابق

(63) الديوان / 48

(64) حيث قال المتنبي في سف الدولة: هذا عتابك إلا أنه مقه ... قد ضمن الدر إلا أنه كلم

انظر المتنبي - ديوانه بشرح أبي البقاء العكبري ح 3 ص 374 - دار المعرفة - بيروت - د.ت.

(65) انظر ترجمة مطران في:

- أنيس المقدسي: أعلام الجيل الأول من شعراء العربية في القرن العشرين بيروت - 1972م

- محمد عبد اللطيف السحرني: خليل مطران، الرجل الشاعر - مصر سنة 1954 م.

- محمد مندور: خليل مطران - معهد الدراسات العربية - القاهرة سنة 1954 م.

- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين المجلد السابع ص 480 وما بعدها.. الكويت سنة 2008

(66) الديوان ص 131.

(67) السابق.

(68) الديوان ص 131

(69) خليل مطران.. ديوان الخليل ج 1 - ص 86 ط دار مارون عبود - بيروت - لبنان سنة 1975

(70) الديوان 132

(71) السابق.

(72) انظر ترجمته في - السيد تقي الدين السيد: على محمود طه - حياته وشعره - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.. ط الأول - القاهرة سنة 1964.

- أنور المعداوي: علي محمود طه - الشاعر والإنسان وزارة الثقافة والإرشاد 0 بغداد سنة 1965.

- محمد مندور: الشعر المصري بعد شوقي - الحلقة الثانية مطبوعات معهد الدراسات العربية - القاهرة سنة 1957

- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين - المجلد الرابع عشر الكويت سنة 2008.

(73) الديوان ص 133.

(74) الديوان ص 133.

(75) الديوان ص 133.

(76) انظر ترجمته في: عمر المختار " قدوة الجهاد " د/ محمد حامد الحضيري - دار غزلان للطباعة والنشر، ط الأولى - القاهرة - 1422 هـ - 2004 م - المصور - العدد رقم 955 لسنة 1943 القاهرة.

(77) عمر المختار " قدوة الجهاد " عمر المختار، د/ محمد حامد الحضيري، ص 93.

(78) الديوان ص 58

(79) الديوان ص 58 - 59.

(80) السابق.

(81) الديوان ص 60.

(82) السابق.